وخرجت الى البر ظافرة عند الساعة الثامنة صباحاً ووقعت مغشياً عليها عند قدمي ابنها . فحملوها فوراً برفق الى المستشفى فلوحظ بينش وظهر أنها مصابة في جنبها الايسر بجرح عميق من عضة كلب البحر وانه نزف منها دم كثير وحالتها صعبة جداً وأرسل ملك البلجان المستر ريجلي لها الجائزة حوالة تلغرافية وملأت جرائد أميركا أعمدتها بأخبارها مثنية على شجاعتها وبسالتها وتضحيتها بنفسها في سبيل مستقبل ابنها

رواية هذا العدد

رباط القلبين

على بعد نحو كيلومترين من جنوب القاهرة توجد مزرعة صغيرة في وسطها بيت قديم ذو طابق واحد يحيط به بستان جميل محاط بشجيرات من السيسبان والموز

في أحد أيام فصل الربيع حين تلبس الطبيعة الارض أجمل حللها كان يرى ذلك البستان مزداناً بحلة مزركشة من الزهور الجميلة وقد تضوع أريجها وزهت ألوانها فمشقتها جموع النحل وسمت اليها لتطفئ لوعة فؤادها بامتصاص رضابها العذب

صاحب ذلك البيت رجل في العقد السادس من عمره له زوجة وولد وحيد يدعى سليماً وهو فتى في سن العشرين معتدل القامة قمحي اللون ذو بنية قوية ونفس عصامية

في عصر أحد الايام وقد كادت جيوش الظلام تهزم جيوش النهار جلس سليم في البستان أمام بيته على مقعد مستطيل . وكان يظهر من تقطيب حاجبيه ، وصفرة امتلكت وجهه ، ومن نظراته التي كانت لاهية عما حولها ومصوبة الى اللانهاية كأنها تنظر الى ما وراء الطبيعة لتكشف ما خبأته لها الاقدار ، ومن جمود جسمه كمن أصيب بشلل في جميع أعضائه ـ ان هنالك أسراراً مخيفة قد ملكت مشاعره وهموماً كثيرة قد تراكمت على صدره فأثقلته ثم مد يده الى جيبه وتناول منها غلافاً أخرج منه ورقة صغيرة قرأ فيها : —

حبيبي :

لقد مضى وانقضى ، لقد ذهب واختفى ذلك العهد ، لقد أسدل عليه الستار وطمرته الاتربة

في هذه الليلة سيحتفلون بزفافي الى أحد أبناء عمي ضاربين بدموعي واعتراضاتي عرض الحائط . وقد شاءت مشيئة ذلك الفتى أن يسكنني في قصر هو في المدينة كالربع الخالي في الجزيرة العربية ــ منفرد لا تطرقه قدم أحد ــ . وأنا أعلم أنني سأعيش في هذا السجن كمن يعيش في بلد لا يفهم من لغة سكانها كلمة واحدة . ولكنني سأجرب أن أفهمه ولو لم يفهمني الى أن تأتي الساعة التي نلتقي فيها في ذلك الفردوس الخالد بين يدي الله

تأسَّ عني يا سليم بالربيع فهو حلو وجميل ولا تفسح لليأس مجالا في داخلك ولتحتمل المقدر الى أن يقضي الله أمراً كان مفعولا . ودم لفتى لا تنساك .

فدوى

ثم طواه وأعاده الى جيبه وأخذ يهذي قائلا : —

« الربيع ! ما أجمل الربيع ! هو الفصل الذي تبسم فيه الطبيعة لابنائها المحزونين ، هو الفصل الذي تفتح فيه الطبيعة آذانها وتصغي الى شكوى المتعبين ، هو الفصل الذي تختال فيه ملكة الجمال في عرض البلاد زاهية بحلتها السندسية لتتفقد شؤون البلاد والعباد فتنعم عليهم بابتسامة بعد عبوسها الطويل

الربيع جميل ولكن لمن تكون عيونهم مفتوحة لينظروا جماله ، الربيع حلم لذيذ ولكن لمن تحققت أحلامهم ، الربيع حلو ولكن لمن كانت آذانهم مصغية لزقزقة عصافيره وأنوفهم مفتحة لشم عبيره ، ولكن من كان مثلي فليس له ربيع وانما حياته كلها كروب وآلام وأحزان وأسقام

آه . . . . لقد حظروا عليك أن تحدثيني يا فدوى ظانين أنهم بعملهم هذا يطفئون جذوة اشتعلت في فؤادي وحباً ملك عليّ نفسي ، ولكن لقد خاب ظنهم وساء فألهم ، فلئن منعوني من التحدث اليك فاً لفم فانهم لا يستطيعون أن يمنعوا الريح من أن تحمل لك أنات وشكواي ، ليس باستطاعتهم أن يمنعوها من أن تحمل

خفقان قلبينا ونجوانا عن بعد . . . . »

كان سليم مسترسلا في نجواه هذه وأبوه واقف وراءه يصغي لاقواله دون أن يدعه يشعر به ولكن بدت منه أخيراً حركة شعر بها الابن فقر كأنه أصيب بدوار جنوني أو كأن سهماً اخترق أحشاءه . ولكنه عند ما رأى أباه جمد في مكانه واجتهد أن يمحو كل ما كان على وجهه من أمارات الحزن والالم

حياه أبوه وجلس بجانبه وأخذ يحدق في وجهه وقد تعجب مما ألم به من الاصفرار وبعد قليل افتتح الاب الحديث قائلا .

« مالي أراك يا سليم قد تغيرت أحوالك منذ مدة فأصبحت لا تجلس الى أحد تميل دائما الى الوحدة والانفراد ، وقد قل طعامك وهزل جسمك ، أخبرني ما سبب ذلك ؟ ألست أبك ؟ واني أبذل كل مرتخص وغال في سبيل مرضاتك وتحقيق أمانيك »

« مالك يا ابني أغشيت عينيك يبرقع حتى أصبحت ترى الاشياء على غير حقيقتها ؟ كيف يهزل جسمي وأنا لم أصب ببأس ؟ »

« كلا يابني لم تبرقع عيناي ولئن كانتا كما تقول فان اذني لا تكذبان ما تسمعان فالآن لقد مضت علي مدة وأنا واقف ورائك مصغ الى حديثك لنفسك فلا تخف عني شيئاً . اني أتضرع اليك يا بني أن تقص علي حديثك ، أخبرني من فدوى تلك التي كنت تناجيها ؟ »

وما وصلا في الحديث الى هنا حتى دعيا لتناول العشاء فقاما دون أن يبوح سليم لابيه بشيء .

وبعد العشاء خرج سليم كعادته الى شاطىء النيل الذي كان يبعد عن منزله نحو كيلو متر .

وكان الجو صافيا والسماء زاهية بكواكبها والقمر في وسطها كأنه ملك وحوله النجوم عبيده ، وقد انعكس نوره على سطح مياه النيل فتلألأت كاللبلور وخيل للناظر الى ضفتي النهر أن الاشجار أشباح سابحة فيه ، أو جنود تنتظر قائدها لتختفي به .

جلس سليم على كثيب من الرمل هناك وأخذ يصغي الى صوت خرير المياه فتنفس الصعداء فشعر بارتياح في نفسه وانشراح في صدره . الا أنه ما عتم أن عادت

اليه أفكاره وهواجسه فنظر الى السماء وأخذ يناجي بدرها قائلا :

« أيها القمر ! يا سلوة المحزون وانس البائس ! أنت تكتسب نورك من الشمس فاذا ما هبت تلك فقد أصبحت حياتك بلا معنى اذ بفقدانها تفقد هيبتك وجلالك وتفقد عيون البشر الناظرة اليك وتصبح كرفات داخل القبر وتمسي في هذه الحياة هي فدوى والآن بعد أن حجبوها عني وقطعوا أسبابي من أسبابها أعاد لحياتي معنى؟ وهل تعيش أرض بغير شمس وجسم بغير حياة ؟ أجبني أيها القمر بالله أجبني فقد عيل صبري وسدت أمامي الطرق »

وكأن نفسه قد خارت فصمت قليلا ثم اهتز كأنه استيقظ من حلم وعاد فقال .

« يا أشباح الليل المتحركة : أيتها النجوم الزاهية بلمعانها والسماء الزاهرة بنجومها أيتها الاشجار التي ترتشف فمها بنسيم الحب : أيتها الوحوش الضارية والحيوانات الاليفة : أيتها الصخور الصماء والنباتات الخضراء : أيتها الطيور الراقدة في مكانها والمياه المتدفقة في مجاريها : أمامن وسيلة عندكن لاخماد هذه العواطف المتدفقة ؟ ألا تقدرن على تطييب هذا القلب المجروح ؟ اليس بامكانكن أن تجتمعن معاً وتسكبن جام غضبكن على هذا العالم الفاسد ؟ . . . . . أنت أيها القمر كيف تُلقي بنورك على بؤرة الفساد ؟ وأنت ايتها المياه كيف تسقين أرضاً أصبح الفساد جزءاً من حياة ساكنيها ؟ فأنت لا تستطيعين أن تطهريها من ادرانها لانك لا تقدرين أن تميزي بين غثها وسمينها ؛ حقها وباطلها . . . .

كلا ثم كلا لم يعد لي مأرب في الحياة فماذا أصنع ؟ . . . . نعم نعم لقد أهتديت الى طريقة تريحني من هذه المتاعب والهموم ، فالوداع الوداع أيتها الدنيا الظالمة سوف لا أعود العوبة في يديك تقذفين بي حيث شئت ، سوف أبتعد عن مرمى سهامك واختفي من أمام عينيك ، سوف أذهب الى حيث لا تقدر أيديك أن تنالني ، سوف أموت . . . لا لا سوف أحيا لان الحياة في هذا العالم هي الموت »

ثم سار نحو النيل ووقف على شاطئه وأدار وجهه شطر القاهرة — حيث كانت تسكن فدوى وقال يودعها :

« الوداع يافدوى ، الوداع يامن كان شرف محتدها وبالا عليّ وعليها ، الوداع

أيتها الروح التي لم أعد قادراً على الحياة بعد انفصالها عني ، الوداع يا ذات القلب الطاهر والروح النقية ، اذكريني يا فدوى ولا تنسيني ، تعالي الى هذه البقعة واندبي فوقها سعادتنا التي قضت عليها أيدي الجهل والظلم . . .

وهمّ بان يلقي نفسه في النهر فما شعر الا ويد قبضت عليه من الخلف وشخص يقول له : « لا لا يا هذا لا تجنِ على نفسك وآلك ، احتفظ بنفسك ولا تكن جبانا لأن الانتحار دليل الجبن لا الشجاعة »

ـ « اني استحلفك بالله ياهذا لا تكن حائلا دون راحتي فان لي في الموت راحة وفي الحياة شجونا . ان الحياة لذوي القلاع والقصور هؤلاء بايديهم حل الامور وعقدها ؛ لا يحول بينهم وبين مسرة انفسهم وارضاء شهواتها حائل ، يعفون ويظلمون ؛ يقتلون ويفتكون ومع ذلك فهم السادة المحترمون المبجلون ، واما الفقير المسكين فليس نصيبه منها غير الذل والشقاء . فياهذا ان كنت تود خيري فدعني أموت لان الهموم تقتلني »

وبينما كان سليم يفوه بهذه الكلمات متأثراً اشد التأثر كان أنيس بك يقناده نحو تل هناك فاجلسه وجلس بقربه يحدثه بعبارات رقيقة الى أن هدأت سورة غضبه وشعر بارتياح الى محدثه وحينئذ تقدم اليه أنيس بك وطلب منه ان يطلعه على خبيئة نفسه ودواعي شجونه واعداً أياه بمساعدته على تحقيقها فلبى سليم دعوته لان النفس الحزينة لا تشعر بالارتياح الا اذا افرغت فيها من الآلام والاسرار الى نفس اخرى تشعر بشعورها وتحن حنينها فكأن حملا ثقيلا يكون على صدرها فتنقله وتضعه على صدر غيرها . وابتدأ سليم حديثه قائلا :

« أنا سليم بن جميل حاصب احد رجال الطبقة الوسطى في هذه المدينة . وقد ارسلني والدي منذ خمس سنوات الى احدى كليات فرنسا لادرس فن الطب ؛ فرجعت منذ سنة حاملا شهادتي ومفتخرا بتبريزي على اقراني ومؤملا لنفسي مستقبلا سعيداً تهيئه لي شهادتي ومهارتي في فن الطب . ولكن آه . . . ليتني كنت اعلم ان السعادة اليوم اصبحت تشترى بالدراهم ، ليتني كنت اعلم ان السعادة لا تكون في هذه الايام مع صفاء القلب وطهارته ، ليتني كنت اعلم ان السعيد هو من سعد

آباؤه واجداده فهيأوا له فراشاً وثيراً من السعادة وسيفاً مصقولاً من المجد .

تقدمت الى دائرة الصحة النابعة للحكومة طالباً الالتحاق بمستخدميها الا أن طلبي رفض مع أن كثيرين غيري ممن كانوا اقل نجاحا مني في فرنسا قبلوا وما ذلك الا لانهم وجدوا من يسعى لهم عند الرؤساء وذوي الشأن لانهم وجدوا من يبيع لهم ضميره ووجدانه بمبلغ من النقود ينفحونه اياه .

أعدت الطلب مراراً وكنت في كل مرة ارفض . ثم هممت بأن افتح لي محلا خصوصياً للطب ولكن ضيق ذات يد والدي كانت تمنعني من ذلك . فقد كانت لنا قطعة من الارض نعيش من ريعها مرتاحين ولكنها انحلت في السنتين الاخيرتين فاصبنا في حالة فقر مدقع . وهكذا تركت الطب والاطباء وأخذت اهتم بقطعة ارضنا أعدها للسنة المقبلة . كنت اشتغل بسرور من الصبح الى المساء وبعدئذ اخرج الى هذه البقعة استنشق عليل النسيم واصغى الى الحان الطيور وخرير المياه .

بينما كنت سائرا في احدى الليالي على هذا الشاطىء اذا بصوت ضعيف اخترق أذني فلم أعبأ به بادىء ذي بدء وحسبته صوت بعض الفلاحين عائدين من القاهرة أو اليها . الا انني لم أكد أخطو بضع خطوات حتى عدت فسمعت ذلك الصوت بوضوح أكثر ولرقته عرفت أنه صوت انثى ومن لهجته التي تجرح القلوب وتفتت الاكباد عرفت أنه صوت مستجير . فأطلقت ساقي للريح وسرت نحو مصدر الصوت غير حاسب لما أنا مقدم عليه حسابا مع أنني كنت أعزل . وكنت كلما سرت قليلا وسمعت صوت الاستغاثة ثم تصورت فتاة بين يدي قوم قلوبهم قدت من الصخر تبكي وتستغيث « ولكن لا حياة لمن تنادي » ازداد قوة وشجاعة . الا أن ذلك الصوت قد عاد يصرخ على بعد كتب مني قائلا : « أخذوا أبي الانذال ابتعدوا عني واتركوني . . . . . أي ذنب اقترفت فاستحق أن تجازوني عليه بهذا الجزاء ... أتقوا الله أيها الرجال أما لكم نساء تغارون على أعراضهن ؟ أما منكم من فيه بقية من الشهامة فيخلصني ؟ أكلكم من أصل واحد جُبل على اللؤم والدناءة ؟ عذبوني واقتلوني ولكن لا تمسوا عفافي بسوء » فما سمعت ذلك حتى غلى الدم في عروقي وسرى تيار من الحمية في نفسي وهجمت صارخا . « لبيك أيتها المظلومة لبيك . . . هوذا

الاثمة الاشرار . . . الينا يا بديع وسر أنت يا أميل مع رفاقك الى الجهة القريبة ولسوف نقضي على تلك الارواح الخبيثة ، تلك النفوس الدنيئة الخالية من معاني الانسانية الحقة فهي كالحيوانات الضارية لا تمتاز عنها الا بتلك القوة الفكرية والصورة البشرية اللتين جعلتاها أقدر على ارتكاب جرائمها . . . تشجعوا أيها الابطال وافتكوا بهم فتكاً ذريعاً »

وما سرت قليلا حتى رأيت على ضوء القمر جثة مطروحة فوق الرمال لا تبدي حراكا فنظرت حولها في كل الجهات ولم أر المعتدين أثراً وسمعت بعض اصوات في النهر عن بعد فعلمت أنها أصواتهم وان الخوف قد دب في عروقهم لكانوا قد أعدوا زورقا فالتجأوا اليه ونجوا فلم أهتم بالحاق بهم ، وكيف اتبعهم وأنا وحيد اعزل ؟

اقتربت من الجثة ونظرت فاذا فتاة في مقتبل العمر جميلة الطلعة ؛ يظهر من ملابسها وما عليها من فاخر الثياب أنها ابنة أحد الاشراف . خاطبتها فلم تجب . فركعت بقربها وجسست نبضها فاذا به يدق دقات ضعيفة . فاسرعت الى النهر وصببت قليلا من الماء ورششت به وجهها فتحركت قليلا وفتحت اطراف عينيها ثم عادت واغمضتها دون أن تتكلم

وكان قلبي في كل هذه المدة يخفق خفقانا شديداً لم أكن أعرفه من ذي قبل . ثم مددت يدي نحو السماء وضرعت الى الله أن يرأف بها ويعيد لها حياتها . وبينما أنا انظر اليها مبهوتا عادت ففتحت عينيها ثم قالت بصوت مزقت لهجته نياط قلبي « أأنت أحد أولئك الانذال ؟ ابقيت هنا لتقضي على البقية الباقية من حياتي ؟ أم تنتظر خروج روحي ؟ أأنت أقسام قلباً واشرسهم اخلاقا ؟ » فاجبتها : «لست أحد اولئك الانذال يا سيدتي وانما أنا مخلصك منهم اذ بينما كنت سائراً على مسافة قريبة من هنا سمعتك تستجيرين فلبيت النداء وجئت مسرعا وكان ما كان من نجاتك منهم » فحدقت في وجهي كأنها لم تصدق حديثي ثم اسبلت عينيها كأنها تتذكر شيئاً قديماً وبعد قليل قالت بصوت منقطع : « نعم لقد سمعتهم يقولون فلنهرب ولنتركها . فنتخلص بانفسنا فان اعداءنا كما يظهر كثيرون . . . أسرعوا الى الزورق لقد اقتربوا . . . . . اذن أنت مخلصي ، أنت من حفظ لي شرفي الذي هو اعز عندي

من حياتي . . . . فماذا استطيع أن اجازيك ؟ »

« عفوا يا سيدتي ، اني لم اقم الا بواجبي نحو الشرف والانسانية وغاية ما ارجوه منك الآن ان تقومي معي الى بيتنا في هذه المزرعة القريبة وهو ليس أهلا لان تدخليه ولكن للضرورات احكام ، وهنالك بعض الادوات الطبية يمكني ان اعالج بها جروحك الطفيفة هذه ثم اعيدك الى بيتك »

« شكراً لك ايها الشهم شكراً جزيلا . شكرا اقدمه لك بلسان الشرف والانسانية اللذين نبذهما الناس نبذ النواة واما انت فحافظ عليها . ساعدني على القيام فاني اشعر بارتخاء في اطرافي ، وسر بنا حيث تشاء » ومدت يدها نحوي لانهضها فما لمستها حتى شعرت كأن تيارا قويا من الكهرباء قد سرى في جسمي وكدت اصعق لولم اشدد نفسي واشجعها على الاصطبار ذاكرا انني في موقف جد وشرف لا موقف عواطف

أنهضتها ثم وضعت يدها على كتفي وسرت بها الهوينا الى أن وصلنا الى البيت . وكأن لساننا قد عقدا فلم يكلم أحدنا الاخر بكلمة

دخلنا البيت واذا أبي في انتظاري وقد شغل بالله لتأخري . حينه ثم أسرعت وأنبتها ببعض المنعشات وبعد ان ضمدت جروحها سألتها عما اذا كانت تود أن تقضي بقية ليلها عندنا ، فاعتذرت لي قائلة : « أشكرك أيها الشهم المفضال على ما أسديت نحوي من النعم التي لست قادرة أن أجازيك عليها ما عشت ، واني أود من صميم فؤادي أن أقضي معك هذه الليلة بل بقية أيام حياتي جميعها لانني شعرت بارتياح لحديثك واستئناس لشخصك . على أن لي بقية أهل قد يسألون عني فلا يجدونني وخير لي أن أذهب اليهم لتطمئن أفكارهم . فهل لك أيها الشهم الكريم أن تزيدني معروفاً باصطحابي اليهم لانني لا أقوى على المسير وحدي في ظلمة هذا الليل البهيم ؟ »

قمت فأعددت حصاناً كان عندنا وأركبتها عليه ثم سرنا يهدينا الى الطريق ضوء القمر والنجوم الساطع . وكانت الطبيعة هادئة وكأن كل ما على سطح الارض قد قضى فلم يكن يسمع غير وقع حوافر الحصان على الارض . وبعد قليل افتتحت

الحديث معها قائلا : « هل لك ياسيدتي ان تحدثيني بأمر هؤلاء الاشرار وكيف تمكنوا من اختطافك وسلب راحتك ؟ فأجابت بعد صمت قليل :

« خرجت اليوم الساعة الرابعة بعد الظهر من الاوبرا الملكية فتقدم اليّ سائق سيارة ودعاني للركوب في سيارته فلم أر مانعا من ذلك وركبت وبعد ان سألني عن الشارع الذي أريد الوصول اليه سار ينهب بنا الارض نهباً . وبعد قليل سار في طريق غير الذي أريده فسألته لم ذلك ؟ فقال : « أن لي زوجاً أريد أن أخبرها انني لا أعود الى البيت في هذا المساء لكي لا يشغل بالها » . فلم أرتب في كلامه وتركت له ما يريد الا انني نظرت بعد برهة فاذا نحن خارج المدينة . ولم أشعر الا والسيارة تقف ثم هجم علي ثلاثة رجال وربطوا فمي حتى صرت لا أستطيع الصراخ وأنزلوني وأنا والهة حيرى لا أدري ماذا أصنع ، ونقلوني الى حيث وجدتني ليتركوا جريمتهم »

وقد وصلنا الى أبواب المدينة فأوقفت الحصان ونزلت عنه وقالت : « قد وصلنا الى المدينة وأنا لا أحب أن أدخلها بهذه الصورة . وسأعود الى بيتي الان كأنه لم يحدث لي شيء واذا ما سئلت عن سبب تأخري فسأجيب بأنني كنت عند احدى صديقاتي . وقبل ان نفترق اعود فأكرر لك شكري وسأغتنم أول فرصة لزيارتك في مزرعتكم والان مساء الخير » . ثم مدت الي يدها فمددت لها يدي وتصافحنا وأنا مختبل العقل مفقود اللسان وتركتني مكاني وسارت

وبقيت واقفاً مجذوب البصر نحوها الى أن اختفت آخر طية من طيات ثيابها . ثم امتطيت صهوة الحصان وتركت له ولخيالي العنان وحاولت أن أرسم في سجل دماغي صوراً لحوادث ذلك المساء وأخذت أستعيد على مسامع نفسي كلمات تلك الفتاة كلمة فكلمة مقلداً صوتها وحركاتها الى أن وصلت الى البيت

كانت تلك الليلة فاتحة لحياة جديدة مملوءة بالمتاعب والآلام

كانت توطئة لمأساة فظيعة في هذه الليلة سيمثل آخر فصل منها

في تلك الليلة امتدت الي يد السعادة مصافحة ويد الشقاء متوعدة ومقسمة بأغلظ الايمان أن تناصبني العداء

في تلك الليلة سقاني الدهر كأساً على سطحها قليل من الحلوى وفي ثغرها السم الناقع .

في تلك الليلة أغرتني الحياة بزخرف كلامها وبهرجة ثيابها فاختطفتني من يد السكينة والسلام ووضعتني بين يدي الهموم والآلام

في تلك الليلة ولدت ثانية

لم يذق جفني طعم الكرى في ما بقي من تلك الليلة . وما ظهرت تباشير الصبح حتى انسللت من البيت وسرت على غير هدى مني فما وجدتني الا واقفاً حيث وجدت الفتاة مطروحة في مساء الليلة الماضية . أنبت نفسي لهذه الاعمال ونسبت لها الطفة بل الجنون ثم عدت الى البيت وقد صممت على أن لا أعود الى ذكر تلك الفتاة أبداً

هكذا صممت على ذلك بل أقسمت ، ولكن سرعان ما أخلفت وحنثت بيميني اذا ما كدت أخطو بضع خطوات في مزرعتنا حتى سمعت عصفوراً يغرد فوق احدى الاشجار بنغمة شجية . فوقفت وكأنني وجدت به صديقا ضائعا عاد فظهر فقد طربت لغنائه وأخذت أصغي اليه بكل جوارحي الى أن تركني مشرد الفكر وطار

لقد أغراني ذلك العصفور بانشاده فقد أعاد لي ذكرى تلك الفتاة وعبثا حاولت أن أتمسك بقسمي . وبقيت واقفا منذهلا الى أن دعاني أبي لتناول طعام الفطور

وفي عصر اليوم الثالث لم يبق في قوس اصطباري منزع وشعرت بخفقان شديد في قلبي فقمت الى باب البيت واذا بي أرى تلك الفتاة مقبلة نحوي باسمة الثغر وقائلة : « ها أنا أبر لك بوعدي يا مخلصي » فقلت بصوت منخفض تصحبه رعشة : « لولم تبري به لتبرأت مني روحي » فتوردت وجنتاها لتظهرا لي بأن كلماتي قد دخلت الى أعماق نفسها

وجلست وإياها وأبي في البستان وأخذنا نتجاذب أطراف الحديث وسألتها عن نسبها فقالت أنها سورية الاصل وكانت وحيدة والديها ثم توفيت أمها وتوجه والدها منذ أربع سنوات ضابطا في الجيوش المصرية في حرب السودان بعد ان وكل أمرها

الى أحد اخوته وقد انقضت الحرب وعاد من سلم من الجنود لأهله ولكن والدها لم يعد معهم

وكانت نفسي تتوق أن يتركنا والدي وحدنا فأشرح لها ما في نفسي ولكنه لم يفعل وأظن أنه لو فعل لما تجاسرت على مفاتحتها بهذا الموضوع . فبدر لي خاطر وقمت الى مكتبي وكتبت اليها بضعة أسطر أملاها على قلبي الواجب وعواطفي المتهيجة ، كانت خلاصة ما في نفسي من حب وشك وهموم . ثم عدت اليهما سريعاً

ولما انحدر قرص الشمس للمغيب وامتدت خيوطها الذهبية لتودع هذه الجهات قامت فدوى لتودعنا . فسرت معها اشيعها ، ولما اردت العودة مددت لها تلك الورقة بيد مرتجفة وقلب خافق فتناولتها بيد لا تقل في ارتجافها عن يدي وزكت عملها هذا بابتسامة كانت بارقة امل لنفسي :

لكل انسان ساعة من حياته يسر فيها اكثر من سائر ساعاتها فهل تعلم متى كانت هذه الساعة في تاريخ حياتي الماضي ؟ انها كانت في الساعة الرابعة من مساء غد ذلك اليوم . ففي تلك الساعة أستجيب نداء قلبي ، في تلك الساعة علمت بوجود السعادة في العالم ، في تلك الساعة جاءني رسول من فدوى يحمل لي كتاباً كأنه تحقق كل آمالي .

وتواعدت وفدوى على ان تتكاتب مرة كل اسبوع . وكانت رسائلنا في الاسابيع الاولى تقتصر على بث الاشواق وشرح العواطف وما تقاسي النفس من آلام البعد . الا أنها تغيرت بعد ذلك فأصبحنا نطرق فيها مواضيع اجتماعية وغيرها . وأنا لا أزال أذكر ما جاء في احدى رسائلها عن الحب .

« . . . وما الحب الا التعارف بين شطري قلبين أوجدتهما يد الخالق منذ الازل لتولفا قلبا واحدا على هذه الارض ، ومسكين من لم يهتد الى شطر قلبه الاصلي أو استعاض عنه بآخر تختلف عنه كل الاختلاف . فهو لن يسعد وحياته في هذا العالم تكون سلسلة من التأوهات والاحزان . » وما جاء عن مدنية العصر الحاضر .

« يقولون بأن الانسان قد تحضّر . ويا لها من مدنية كاذبة مزيفة . قبل أن يتمدن الانسان لقد تمدنت صفاته القبيحة وتطورت . أصبح الكذب ساعده

الابن والظلم سيفه البتار ، أصبح المكر عنده فنا والخداع صناعة ، هذه هي مدنية اليوم وهذا هو قوامها .

ان المدنية اليوم مظهر من تلك المظاهر الفرارة التي تبهج برؤيتها العيون وماهي الا أن تنظر الى حقيقتها حتى تمجها النفوس وتنبذها الارواح ، فهي كذلك الطبل الذي رآه ابن آوى معلقا على الشجرة فاستبشر ظناً منه بأنه سيجده ملآن باللحم والدسم وبعد أن كابر في الصعود اليه وشقه ما كابد وجده خاويا خاليا . » ؛

مضت خمسة أشهر على تلك الحال ، وكان الدهر قد ندم على مامنحنا من السرور فيها فجاءنا مكشرا عن أنيابه وأجهز علينا بيده الحديدية تلك اليد الظالمة التي لا تشفق ولا ترق .

وفي هذا الصباح جاءني كتاب فدوى ففتحته واذا به لا يتجاوز بضعة أسطر بعد أن كانت تملأ لي الصفحات مفصلة كل ما جرى لها في الاسبوع وكل ما عنّ لها من الخواطر والافكار . والقيت عليه نظرة مستعجلة فاذا بها تقول فيه انه في هذا المساء سيعقد قرانها على أحد أبناء عمها الاغنياء اختاره لها وصيها رغم احتجاجاتها واعتراضاتها الشديدة وسيسكنها زوجها قصراً منفردا ولا يسمح لها بالخروج منه .

فهل تلومني أيها السيد بعد كل هذا على ما أنوي عمله ؟ وهل ترى أنني اذا عشت أكثر أنتفع بحياتي ؟ »

قبض حينئذ أنيس بك وأنهضه وهو يقول : « قم معي أيها الفتى ولتعلم أن الحب لا يتخلى عن أبنائه المخلصين حتى في أحرج الاوقات ، ولتعلم أن عين الحب يقظى ساهرة على أبنائها ، ولتعلم أن رباطاً ربطه الحب لا تستطيع الايدي البشرية أن تحله . هيا بنا الى المدينة وفي هذه الليلة أنيلك مبتغاك »

ولم يمهله للجواب بل قبض على يده وسار به يقوده مسرعا نحو المدينة فوصلا اليها حوالي منتصف الليل الساعة الثامنة مساء . واقتاد انيس بك سليما الى قصر في وسط المدينة يمتاز عن بقية قصورها وبيوتها بما يشع منه من الانوار الشديدة .

وأستاذنا بالدخول فلم يسمح لهما الان ثيابهما لم تكن تدل على أنهما مدعوان للعرس . ولكنهما الحفا في السؤال وطلبا بشدة مقابلة صاحب القصر برهة . فاتاهما

بعد قليل يهدر غاضبا وسألهما بغلظة « من أنتما وماذا تريدان مني في هذا المساء ؟ » فقال له أنيس بك . «أولا تعرفني ياجميل؟ فوقف هذا مبهوتا وأخذ يحملق في وجهه ثم هجم عليه وعانقه ودموع الفرح تهطل على وجنتيه وهو يقول. «أحقا انك عدت الينا يا أخي بعد أن قطعنا الرجاء من رجوعك ؟ .. ... بالسرور فدوى حين تعلم الخبر . . . . لقد تضاعف فرحنا فما أسعد هذا المساء » . ثم سأله أنيس بك : اني أرى القصر مزينا ومنارا على غير العادة فما سبب ذلك يا أخي ؟

« ألم أقل لك أنه تضاعف فرحنا ، انا الآن في عرس ففي هذا اليوم زفت ابنتكم فدوى الى ابن عمها الشهم بديع ناصر الذي هو الآن من أعظم تجار مصر ان لم يكن أعظمهم »

« وهل رضيت فدوى بهذا الزواج ؟ »

« لقد تمنعت في بادىء الامر كما هي عادة بناتنا في هذه الايام ولكنها الآن مسرورة به »

« اذن اذهب يا أخي واعلن لها قدومي لئلا يكون دخولنا عليها فجائيا فتسوء العقبى »

وصعدا بعده رويداً رويداً وبعد قليل فتح الباب وخرج منه جميل وهو يقول: « انتم لا تصدقون الا اذا شاهدتم فادخل يا أخي » .

ودخل أنيس بك يتبعه سليم وما كادت عين فدوى تقع على والدها حتى هجمت عليه صارخة . « أبي وحبيبي » ولحظت سليما بقربه فانتفضت وتقهقرت الى الوراء مذعورة . فتقدم نحوها والدها وأجلسها ثم جلس بقربها وقال : « سمعت بأنك زففت في هذا النهار الى ابن عمك بديع فأنا أهنئك بذلك وأرجو أن تكوني مسرورة بهذا الزواج » فألقت نظرة على سليم ثم أطرقت الى الارض وقد علتها سحابة من الكآبة ولم تجب : ففهم أنيس بك كل شيء وانتصب في وسط القاعة وقال : « عقد في هذا اليوم زفاف ابنتي الى ابن عمها بديع وأنا غائب فلم يكن لي فيه رأي ، وقد تحققت بأن ابنتي رفضت كل الرفض ولكنكم أجبرتموها على ذلك ، فلهذا ولأن هنالك من هو أولى بابنتي من ابن عمها أعلن رفضي لهذا الزواج وأنا مستعد أن أقدم

لك يا سيد بديع جميع نفقاتك وخسارتك غداً » ثم تناول يد فدوى ووضعها في يد سليم وقال : « هكذا يقضي العدل ، ان رباطاً ربطه الحب لا تستطيع يد بشرية أن تحله » فما سمع الحضور ذلك حتى هاجوا وانفلوا واحداً فواحداً وهم بين متعجب لغرائب الاقدار وحانق يلعن الساعة التي عاد فيها أنيس بك اليهم ليكدر صفوهم

وبعد يومين زفت فدوى الى سليم وعاشا بعناية أنيس بك في بحر من الافراح والمسرات .

عيسى عطا الله القدس (دار المعلمين)

بين يديك يا مبادئي !

بين يديك يا مبادئي ألقيت نفسي وتركتها . أنا عبد لك فاصنعي ما أنت صانعة فاني لن أعيش حراً ان لم أكن عبداً لك فاقبليني . اقبليني في أي درجة من درجاتك فاني راض ان أنمو بين يديك فخذيني

اتأسف لأني لم أتمكن من طرح نفسي بين يديك عند ما كنت أحدث سناً من ذلك . أتأسف لذلك الوقت الذي ضاع ولكن خذيني الآن وارجعي اليّ ما قد فاتني

لعلك بسيطة يا مبادئي وبما اني لست بشاعر لا تاشدك ! اكتفي بكلماتي البسيطة معتقداً أنها تحسن في عينيك ولانك لا تهتمين بما وراءها

سأترك كل شيء في هذا الوجود لك وسأخرج منه كما دخلت اليه صفر اليدين وأسير معك الى حيث تريدين

لي ثقة عظيمة بقوتك وقد وجدت فيك ملجأ وهداية . قد رأيت من خلالك نور الله مضيئاً فلعلي أحتك بتلك القوة التي تصدر ذلك النور فينفذ بواسطتي الى غيري

بين يديك يا مبادئي أطرح نفسي لاتعاون وإياك على رفع مستوى الانسان المتألم !

كل منا محتاج الآخر لنتميم عمله فهيا بنا نتعاون لرفع هذه الارض ولتقريبها نحو السماء